المطلب الثامن

طلب النُّـــور

المطلب الثامن

طلب النـــور

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ (سورة الحديد: ١٣-١٤).

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ وهذا إخبار من الله تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة والزلازل العظيمة والأمور الفظيعة وأنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله وعمل بما أمر الله به وترك ما عنه زجر.

قال أبو امامة الباهلي: أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو هذا ـ ويشير إلى القبر ـ بيت الوحدة وبيت الظلمة وبيت الدود وبيت الضيق إلا ما وسع الله، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله فتبيض وجوه وتسود وجوه، ثم تنتقلون منه إلى موطن آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئًا، وهو المثل الذي ضربه الله في كتابه فقال: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (سورة النور: ٤٠).

فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ﴿ نظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً ﴾ وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ (سورة النساء:١٤٢)، فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئًا فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ فما يزال المنافق مغترًا حتى يقسم النور ويميز الله بين المنافق والمؤمن.

﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ قال قتادة: هو حائط بين الجنة والنار.

﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ أي: الجنة وما فيها.

﴿ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ أي: النار.

والمراد بذلك سور يضرب يوم القيامة يحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة.

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات ونصلي معكم الجماعات ونقف معكم بعرفات ونحضر معكم الغزوات ونؤدي معكم سائر الواجبات؟.

﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ أي: فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى كنتم معنا.

﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ قال بعض السلف: أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات وتربصتم أي: أخرتم التوبة من وقت إلى وقت.

﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أي: بالبعث بعد الموت.

﴿ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ ﴾ أي: قلتم سيغفر لنا، وقيل: غرتكم الدنيا.

﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أي: مازلتم في هذا حتى جاءكم الموت.

﴿ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ أي: الشيطان.

قال قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان والله مـازالوا عليها حتى قذفهم الله في النار.

ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافـقين: إنكم كنتم معنا أي: بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها، وإنمـا كنتم في حيرة وشك فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً[1].

يقول سيد قطب: . . . إن المنافقين والمنـافقات في حـيرة وضلال، وفي مـهانة وإهمال، وهم يتـعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات: ﴿ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾

فحـيثما تتـوجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشـفيف ولكن أنَّى للمنافقين أن يقـتبسوا من هذا النور وعـاشوا حياتهم كلهـا في الظلام؟ إن صوتًا مجهلاً يناديهم: ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً ﴾ ويبدو أنه صوت للتهكم والتذكير بما كان منهم في الدنيـا من نفاق ودس في الظلام: ارجعوا وراءكم إلى الدنـيا إلى ما كنتم تعملون. ارجـعوا فالنور يلتـمس من هناك من العمل في الدنيا. ارجـعوا فليس اليوم يلتمس النور!

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص:٣٠٨-٣٠٩).

وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات، فهذا يوم الفصل إن كانوا في الدنيا مختلطين في الجماعة: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ ويبدو أنه سور يمنع الرؤية ولكن لا يمنع الصوت فها هم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ فما بالنا نفترق عنكم؟ ألم نكن معكم في الدنيا نعيش في صعيد واحد؟ وقد بعثنا معكم في صعيد واحد؟

﴿قَالُوا بَلَى﴾ كان الأمر كذلك ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ ... فصرفتموها عن الهدى.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ فلم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحسنة الحاسمة.

﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ فلم يكن لكم من اليقين ما تعزموا به العزمة الأخيرة.

﴿وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ﴾ الباطلة في أن تنجوا وتربحوا بالذبذبة وإمساك العصا من طرفيها.

﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وانتهى الأمر.

﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وهو الشيطان الذي كان يطمعكم ويمنيكم[1].

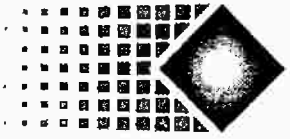

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٦، ص:٣٤٨٦).

من يعمل سوءًا يجزبه

من يعمل سوءًا يجزبه

قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (سورة النساء: ١٢٣).

قال ابن كثير: قال قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم، نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب التي قبله فأنزل الله ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (سورة النساء: ١٢٥).

فأفلج الله ـ أظهر ـ حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان[1].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «قالت اليهود والنصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان منا. وقالت قريش: ليس نبُعث، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾».

وقال الجمهور: لفظ الآية عام، والمؤمن والكافر يجازى بعمله السوء، فأما مجازاة الكافر فالنار لأن كفره أوبقه، وأما المؤمن فنكبات الدنيا، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يُشاكها»[2].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٢، ص: ٥٦٦).

(٢) «تفسير القرطبي» (جـ٣، ص: ١٩٦٦).

قال البقاعي: ولما كانت أمانيهم أنهم لا يجازون بأعمالهم الخبيثة أنتج ذلك لا محالة قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ أي: بالمصائب والأمراض وغيرها عاجلاً إن أريد به الخير وآجلاً إن أريد به الشر، ولما أبدى جزاء المسيء تحذيراً أولاه أجر المحسن تبشيراً فقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾.

يا معرضًا عن الهدى لا يسعى في طلبه، يا مشغولاً بلهوه مفتونًا بلعبه، يا من قد صاح به الموت عند أخذ صاحبه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ جُزْ على قبر الصديق وتلمح آثار الرفيق يخبرك عن حسنه الأنيق أنه استلب بكف التمزيق هذا لحده وأنت غدًا به... ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾.

كم نُهى عن الخطايا وما انتهى، وكم زجرته الدنيا وهو يسعى لها؟! هذا ركنه القويم قد وَهَى وها أنت في سلبه ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾.

أين من عتا وظلم ولقى الناس منه الألم؟! اقتطعه الردى اقتطاع الجلم فما نفعه ما جمع لا والله لم يدفع عنه عزٌّ منصبه ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾.

بات في لحده أسيرًا لا يملك من الدنيا نقيرًا، بل عاد بوزر ذنبه عقيرًا، وأصبح من ماله فقيرًا على عز نسبه وكثرة نشبه ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾.

اللذات تفنى عن قليل وتمرُّ، وآخر الهوى الحلو مر، وليس في الدنيا شيء يَسُرُّ إلا يغر ويضر، ثم يخلو ذو الذلل بمكتسبه ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾.

الكتاب يحوي حتى النظرة، والحساب يأتي على الذرة، وخاتمة كأس اللذات مُرة، والأمر جلي للفهوم ما يشتبه ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾.

تقوم في حشرك ذليلاً، وتبكي على الذنوب طويلاً، وتحمل على ظهرك وزرًا ثقيلاً، والويل للعاصي من قبيح منقلبه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾

يجمع الناس كلهم في صعيد، وينقسمون إلى شقي وسعيد، فقوم قد حل بهم الوعيد، وقوم قيامتهم نزهة وعيد، وكل عامل يغترف من مشربه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

إنما يقع الجزاء على أعمالك، وإنما تلقى غداً غبَّ أفعالك، وقد قصدنا إصلاح حالك فإن كنت متيقظًا فذلك وإن كنت نائمًا فانتبه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[1].

يقول سيد قطب: ... ثم يعقب السياق بقاعدة الثواب الكبرى في العمل والجزاء إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولاً إلى الأماني، إنه يرجع إلى أصل ثابت وسنة لا تتخلف وقانون لا يحابي، قانون تستوي أمامه الأمم، فليس أحد يمت إلى الله ـ سبحانه ـ بنسب ولا صهر، وليس أحد تخرق له القاعدة وتخالف من أجله السنة ويعطل لحسابه القانون، إن صاحب السوء مجزي بالسوء، وصاحب الحسنة مجزي بالحسنة، ولا محاباة في هذه ولا مماراة[2].

---

(١) «الجزاء من جنس العمل» (جـ١، ص:٦٣).

(٢) «في ظلال القرآن» (جـ٢، ص:٧٦٢).

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٢٩).

قال ابن كثير: والمعنى: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ونهلك بعضهم ببعض وننتقم ببعضهم من بعض جزاء على ظلمهم وبغيهم[1].

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور: هو من قبيل قوله: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ (سورة النساء: ١١٥). أي نلزمه ما ألزمه نفسه.

قال المفسرون: يجوز أن يكون معنى: ﴿نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ نجعل بعضهم ولاة على بعض أي: نسلط بعضهم على بعض، والمعنى أنه جعل الجن وهم ظالمون مسلطين على المشركين والمشركون ظالمون، فكل يظلم بمقدار سلطانه، والمراد بالظالمين في الآية المشركون.

وقد تشمل الآية بطريق الإشارة كل ظالم، فتدل على أن الله سلط على الظالم من يظلمه وقد تأولها على ذلك عبد الله بن الزبير أيام دعوته بمكة، فإنه لما بلغه أن عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد الأشدق بعد أن خرج عمرو عليه، صعد المنبر فقال: ألا إن ابن الزرقاء ـ يعني عبد الملك بن مروان، لأنه كان أزرق العينين ـ قد قتل لطيم الشيطان ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٢، ص: ١٨٠).

ومن أجل ذلك قيل: إن لم يـقلع الظالم عن ظلمه سُلط عليـه ظالم آخر ـ وإن أراد الرعية أن يتخلصوا من أمير ظالم فليتركوا الظلم، وقد قيل: وما ظالم إلا سيُبلى بظالم[١].

قال البـقـاعي: ولَّى الكفـرة من ظالمي الجن ظالمي الإنس وسلطهم عليـهم، هذا عمله مع كل ظالم من أي قـبيل بين الأشكال والأوصاف الباطنة والخـصال، ويسلط بعضـهم على بعض في الضـلال والإضلال والأوجاع والأنكـال بما كانوا بجبـلاتهم يكسبون، بسبب اجتماعهم في الطباع التي طبـعناهم عليها، يجتمعون وينقاد بعضهم لبعض حتى صـارت أعمالهم كلها في غـير مواضعـها فيظلم بعضهم بـعضًا ويهلك بعضهم بعضًا، يولى بعض الظلمة بعضًا ليـهنهم بسبب ما كانوا يتعاطونه من مساوئ الأعمال ورديء الخـلال وغث الخصال فيؤديهم إلى مهلك الأوجاع والأوجال[٢].

(١) «التحرير والتنوير» (جـ٨، ص: ٧٣-٧٤).
(٢) «نظم الدرر» (جـ٧، ص: ٢٧٠-٢٧١).

قال تعالى: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة النمل: ٩٠).

قال القرطبي: هل تجزون إلا جزاء أعمالكم.

ومقتضى الظاهر أن يقال: هل يجزون إلا ما كانوا يعملون، فكانت هذه الجملة كالتلخيص لما تقدم، وهو أن الجزاء على حسب عقائدهم وأعمالهم، وما العقيدة إلا عمل القلب فلذلك وجه الخطاب إليهم بالمواجهة[١].

﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة النمل: ٩٠).

وهو مشهد مفزع وهم يكبون في النار على وجوههم، ويزيد عليهم التبكيت والتوبيخ!: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

فقد تنكبوا الهدى وأشاحوا عنه بوجوههم، فهم يجزون به كبًا لهذه الوجوه في النار، وقد أعرضت من قبل عن الحق الواضح وضوح الليل والنهار[٢].

---

(١) «التحرير والتنوير» (جـ٢، ص:٥٣).

(٢) سيد قطب: «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص:٢٦٦٩).

قال تعالى: ﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ (سورة فاطر: ٤٣).

﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ ﴾ أي: استكبروا عن اتباع آيات الله.

﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ أي: ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله.

﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ أي: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم.

قال رسول الله ﷺ: **«إياك ومكر السيء فإنه لا يحيق المكر السيء إلا بأهله ولهم من الله طالب»**.

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ ﴾ يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسلهم ومخالفتهم أمر الله عزَّ وجلَّ.

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ أي: لا تغيير ولا تبديل بل هي جارية كذلك في كل مكذب.

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ أي: ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ ﴾ (سورة الرعد: ١١)، ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد[١].

﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ ولا ينزل المكر السيء إلا بأهله، يعني: بالذين يمكرونه وإنما عنى أنه لا يحل مكروه ذلك المكر الذي مكره هؤلاء المشركون إلا بهم[٢].

---

(١) «تفسير ابن كثير».

(٢) «تفسير الطبري» (جـ١٠، ص: ١٤٦).

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ أي: لا ينزل عاقبة الشرك إلا بمن أشرك وقيل: هذا إشارة إلى قتلهم ببدر.

وعن ابن عباس أن كعبًا قال له: إني أجد في التوراة من حفر لأخيه حفرةً وقع فيها فقال ابن عباس: فإني أوجدك في القرآن ذلك قال: وأين؟ قال: فاقرأ: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾.

وفي المثل العربي: من حفر لأخيه جبًا وقع فيه منكبًا.

وقال بعض الحكماء:

يا أيها الظالم في فعله ■★■ والظلم مردود على من ظلم
إلى متى وحتى متى ■★■ تحصي المصائب وتنس النعم[1]

ولهذا قيل في المثل: وما ظالم إلا سيبلى بظالم.

وقال الشاعر:

لكل شيء آفةٌ من جنسه ■★■ حتى الحديد سطا عليه المبردُ

ومن كلام عامة أهل تونس: يا حافر حفرة السوء ما تحفر إلا قياسك.

فيكون موقع قوله: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ موقع الوعيد بأن الله يدفع عن رسوله ﷺ مكرهم ويحيق ضر مكرهم بهم.

وقال: المعنى أنه لا تقع الكرامة في موقع العقاب ولا يترك عقاب الجاني، وفي هذا المعنى قول الحكماء: ما بالطبع لا يتخلف ولا يختلف[2].

---

(١) «تفسير القرطبي» (جـ٨، ص:٥٥٤١).
(٢) «التحرير والتنوير» (جـ٢٢، ص:٣٣٥).

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ فما يصيب مكرهم السيء أحدًا إلا أنفسهم وهو يحيط بهم ويحيق ويحبط أعمالهم، وإذا كان الأمر كذلك فماذا ينتظرون إذن؟ إنهم لا ينتظرون إلا أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم وهو معروف لهم، وإلا أن تمضي سنة الله الثابتة في طريقها الذي لا يحيد ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾[1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص:٢٩٤٩).

قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (سورة هود: ١٠١-١٠٢).

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا اخذه لم يفلته»، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[1].

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ (سورة الكهف: ٥٩).

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنعام: ٤٥).

وقال تعالى في شأن أصحاب السبت: ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ١٦٥).

فالله لا يظلم الناس شيئًا في دنياهم، وإنما يؤاخذهم بظلمهم ولا يظلمهم في الآخرة وقال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ (سورة الزخرف: ٧٦-٧٧).

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم فكذبوا وعصوا، فجوزوا بذلك جزاء وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد[2].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص: ١٣٥).

يقول سيد قطب: كذلك فعلوا بأنفسهم وأوردوها هذا المورد الموبق ظالمين غير مظلومين[١].

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ (سورة الصافات: ٢٢-٢٤).

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (سورة الكهف: ٢٩).

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (سورة الأعراف: ١٨٢-١٨٣).

قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (سورة الأنفال: ٣٠).

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة هود: ٤٤).

أي: هلاكًا وفسادًا لهم وبعدًا من رحمة الله فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية[٢].

قال سيد قطب: بعدًا لهم من الحياة فقد ذهبوا، وبعدًا لهم من رحمة الله فقد لعنوا، وبعدًا لهم من الذاكرة فقد انتهوا، وما عادوا يستحقون ذكرًا ولا ذكرى[٣].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٣٢٠٢).
(٢) «تفسير ابن كثير» (جـ٢، ص: ٤٥٧).
(٣) «في ظلال القرآن» (جـ٤، ص: ١٨٧٩).

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (سورة الكهف: ٤٩).

وهذا الكمال عدل، والنفي هنا لإثبات كمال الضد، فحكم الله بين عباده يوم القيامة ووزنه لأعمالهم لا جور فيه.

﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعًا ولا يظلم أحدًا من خلقه بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم.

وعن عبد الله بن أنيس قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: قال رسول الله ﷺ: **«يحشر الله عزَّوجلَّ الناس يوم القيامة - أو قال: العباد - عراة غرلا بُهْمًا» قلت: وما بُهْمًا؟ قال: «ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى اقصه منه حتى اللطمة، قال: قلنا: كيف وإنما نأتي الله عزَّوجلَّ حفاةً عراةً غرلاً بُهْمًا؟! قال: «الحسنات والسيئات»**[1].

وقال عثمان بن عفان: قال رسول الله ﷺ: **«إن الجمّاء ليقتص لها من القرناء يوم القيامة»**[2].

قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٤٧).

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه أحمد «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص: ٩٠).

وقال عزَّ وجلَّ على لسان نبيه هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة هود: ٥٦).

فقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مثل قول رسول الله ﷺ: «عدلٌ فِيَّ قضاؤك».

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (سورة النساء: ٤٠).

يخبر الله تعالى: أنه لا يظلم أحدًا من خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة بل يوفيها له ويضاعفها له إن كانت حسنة.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فيقول الله عزَّوجلَّ: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه من النار»، وفي لفظ: «أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار فيخرجون خلقًا كثيرًا»، ثم يقول أبو سعيد اقرأوا إن شئتم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية[1].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ (سورة يونس: ٤٤).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة يس: ٥٤).

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢٨١). ومن تمام عدله أنه لا يحاسب الناس إلا بعد قيام الحجة عليهم، فالتكليف مُنتفٍ إذا لم تبلغهم الدعوة بمجيء الرسول ﷺ.

---

(١) رواه البخاري ومسلم/ «تفسير ابن كثير» (جـ١، ص: ٤٩٧).

﴿ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ١٣١). فمع ثبوت الظلم لهم إلا أن الله لا يحاسبهم، فأهلها غافلون لم تبلغهم الدعوة فالتكليف هنا مُنتفٍ.

قال مالك بن دينار: مكتوب في التوراة: كما تدين تدان، وكما تزرع تحصد، فَتُب إلى مولاك من قريب، فوالله ما ظلمك من جعلك حسيب نفسك.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول العبد يوم القيامة: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسحقاً فعنكنَّ كنت أناضل»**[1].

وقد انفرد الله عزَّ وجلَّ بالحكم كما انفرد سبحانه بالوحدانية قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ (سورة المائدة: ١).

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ (سورة الممتحنة: ١٠).

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (سورة المائدة: ٥٠).

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ (سورة الكهف: ٢٦).

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة القصص: ٧٠).

---

(١) رواه مسلم وأحمد.

وقال تعالى: ﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة القصص: ٨٨).

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (سورة يوسف: ٦٧).

وقال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (سورة هود: ٤٥).

وقال عزَّ وجلَّ على لسان شعيب عليه السلام: ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (سورة الأعراف: ٨٧).

وقال عزَّ من قائل: ﴿ ...فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (سورة يوسف: ٨٠).

وأخيرًا ..

فما كان من توفيق فمن الله، وما كان من خطأ أو نسيان فمني ومن الشيطان.

والنقص في أصل الطبيعة كامن ■★■ فبنو الطبيعة نقصهم لا يجحد

وكيف يعصم من الخطأ من خلق ظلومًا جهولاً!!

وأسأل كل من قرأ هذا الكتاب وانتفع به أن يسأل الله لي غفران الذنوب، وتقبل صالح الأعمال، وأن يرزقني الشهادة في سبيله، ومرافقة نبيه محمد ﷺ في أعلى جنات الخلد.

ولمن أراد أن يراسلني لمعرفة رأيه في الكتاب؛ فرحم الله امرءً أهدى إليَّ عيوبي:

- جمهورية مصر العربية، محافظة البحيرة - مركز إيتاي البارود - عزبة الحكر - د/ رجب محمود إبراهيم بخيت.

- وعبر الهاتف: ٤٥/٤٣٣٩٥٩.

- وعبر البريد الإلكتروني:

ragab mahmod@hotmail.com

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه

رجب محمود إبراهيم بخيت